## "الوسيط والمُصالح بين المتخالفين"

✠✝✠

[كان أثناسيوس الكبير في جميع الظروف هو الوسيط والمصالح بين المتخالفين، متشبِّهًا بذاك الذي «عمل الصلح بدمه» بين المتناقضات] القديس غريغوريوس النزينزي، عظة ٢١ على أثناسيوس

**ثالثًا - كيف صالح القديس أثناسيوس الفريقَين المتشاحنَين في كنيسة أنطاكية:**

كانت كنيسة أنطاكية في ذلك الحين تعاني من الانقسامات الداخلية بين الموالين لمجمع نيقية وبعضهم البعض، فبخلاف الأسقف الأريوسي إيوزويوس Euzoius الذي أقامته السلطات على كرسي أنطاكيا كان يوجد بالمدينة فريقان من الأرثوذكس في تشاحن مستمر بينهما، الفريق الأقدم هم الذين نُفِي أسقفهم يوستاثيوس Eustathius سنة ٣٣٠م بسبب تمسكه بمجمع نيقية. هؤلاء بقوا بعد ذلك بدون أسقف احترامًا لأسقفهم المنفي فكان يُدبِّرهم القس بولينوس Paulinus وكانوا يعتبرون أنفسهم هم وحدهم الأرثوذكس الشرعيين في أنطاكيا. والفريق الثاني هم الذين كان يُدبِّرهم الأسقف ميليتيوس Meletius وكان أيضًا من الموالين لمجمع نيقية، وكان يسانده القديس باسيليوس الكبير وبقية الآباء الكبادوكيين، بينما بولينوس كان قد نال تعضيد أثناسيوس والغرب. ولم يقف الخلاف بين الفريقَين على مستوى الأشخاص، بل لكي يُبرروا انقسامهم أعطوه صبغة عقائدية مفتعلة، فالتابعون لبولينوس تمسكوا بمعنى كلمة هيبوستاسيس المتداول في الغرب (أي الجوهر) وقالوا بالهيبوستاسيس الواحد في الله، بينما فريق ميليتوس تمسكوا بمعنى هذه الكلمة المتداول في الشرق، أي بمعنى الأقنوم وقالوا بثلاثة هيبوستاسيس أي أقانيم في الله، وهكذا استطاع كل فريق أن يتهم الفريق الآخر بالهرطقة مع أن كليهما متمسك بالإيمان النيقاوي! وقد رأينا كيف يشرح القديس غريغوريوس النزينزي هذا الخلاف السقيم وكم يتحسَّر عليه.

كذلك صديقه القديس باسيليوس الكبير عمل كثيرًا لحل هذا الخلاف ولمصالحة هذين الفريقَين بعضهما مع بعض، ولكن بلا جدوى. وأخيرًا استغاث القديس باسيليوس بالقديس أثناسيوس معتبرًا أنه هو وحده القادر أن يصالح هؤلاء المتخاصمين، وهذا ما كتبه له:

**[إن استقرار الأمور في كنيسة أنطاكية يتوقف بالتأكيد على قداستك: فإنك أنت تستطيع أن تُوجِّه البعض وأن تلزم البعض الآخر بالهدوء، وأن تُعيد للكنيسة قوتها بالوفاق. إنك خير من يعلم أنه يلزم – كما يفعل أحكم الأطباء – البدء بمعالجة الأجزاء الأكثر أهمية. وما هو أكثر أهمية لكنائس المسكونة كلها من أنطاكية؟ فإنها إن عادت إلى التوافق فلن يمنعها شيءٌ – كرأس استعادت صحتها – أن تُعيد للجسم كلّه صحَّتَه[1]. نعم إن أسقام هذه المدينة تحتاج إلى حكمتك وإلى شفقتك الإنجيلية، فإنها لا تعاني فقط من الانقسام بواسطة الهراطقة بل هي ممزَّقة أيضًا بين الذين يقولون إن لهم نفس المعتقد.**

**إن توحيد هذه الأجزاء وإعادة جمعها في جسد واحد بالتوافق لهو من اختصاص ذاك القادر بقدرته الفائقة أن يجعل العظام اليابسة تتقارب ويكسوها بالجلد والأعصاب، غير أن الرب يستخدم بكل تأكيد في تنفيذ أعماله العظيمة أولئك الذين يراهم مؤهَّلين لذلك. وبالتالي نحن نتعشَّم أن خدمة مثل هذه القضايا السامية تتفق مع سمو روحك، حتى أنك تُهدِّئ اضطراب الشعب وتضع حدًّا للقيادات الخاصة وتجعل الجميع يخضعون بعضهم لبعض بالمحبة، وبذلك تستعيد للكنيسة قوتها الأولى][2].**

لقد قضى القديس أثناسيوس نفيه الثالث (٣٥٦-٣٦٢م) ونفيه الرابع (٣٦٢-٣٦٣م) مختفيًا في صعيد مصر، ولم يتخلل بين هذين النفيين إلا فترة سلام وجيزة (٨ شهور فقط) قضاها في الإسكندرية، وقد استغلَّها ليجمع مجمعًا في صيف سنة ٣٦٢م خصيصًا للنظر في مشاكل كنيسة أنطاكية ومصالحة المتخاصمين فيها. وقد دُعِيَ هذا المجمع "مجمع المعترفين" لأنه قد حضره عدة أساقفة كانوا منفيين مع القديس أثناسيوس

---

(١) كانت كنائس الكبادوك تابعةً أصلًا لبطريركية أنطاكية، وكان الخلاف بين الأحزاب المتصارعة في كنيسة أنطاكية يرتد على جميع الكنائس التابعة لها.

(٢) القديس باسيليوس الكبير، رسالة رقم ٦٦ إلى أثناسيوس.

وأُفرج عنهم. وقد استدعى القديس أثناسيوس لهذا المجمع مندوبين من حزب بولينوس وآخرين من حزب ميليتيوس. وقد ذكر القديس غريغوريوس النزينزي في مدحه لأثناسيوس ما عمله في هذا المجمع:

**[فلمَّا رأى وسمع ذلك (أثناسيوس) ذاك الطوباوي الذي كان بالحقيقة رجل الله ومدبِّرًا حسنًا للنفوس، اعتبر من غير اللائق السكوت على مثل هذا الانقسام السقيم الذي بلا معنى الناتج عن مجرَّد لفظ. فبادر بتقديم العلاج المناسب لهذا المرض. فماذا فعل؟ إنه بوداعته ومحبته المألوفة دعا الطرفَين المتشاجرَين وفحص بتدقيق المعنى المتضمِّن في مقولة كلٍّ منهما ولمَّا وجدهما متوافقَين في كل شيء ما عدا في اللفظ، سمح لكل منهما أن يستعمل مصطلحاته الخاصة، وصالحهما في الواقع]**(٣).

ثم أرسل القديس أثناسيوس مع هؤلاء المندوبين من الطرفين، رسالة إلى كنيسة أنطاكية عُرفت باسم "الطوموس إلى الأنطاكيين" Tomus ad Antiochenos جاء فيها:

**[لا تتعاركوا بلا فائدة بخصوص كلمات، ولا تتخاصموا بخصوص العبارات المشار إليها، بل اتفقوا في مشاعر التقوى... واعتبروا فوق كل شيء قيمة ذلك السلام الذي في حدود صحة الإيمان، لعلَّ الله يتراءف علينا ويُوحِّد ما انقسم فلا يكون بعد سوى رعية واحدة لراعٍ واحد الذي هو ربنا يسوع المسيح نفسه]**(٤).

وكان تعليق القديس غريغوريوس النزينزي على هذه المصالحة التي أكملها أثناسيوس:

**[كان سلوكه هذا أنفع (للكنيسة) من كافة الاجتهادات والمقالات المطوَّلة التي يكتبها الكثيرون والتي لا تخلو من حب المباهاة، ... كان سلوكه هذا أنفع من كل أسهاره وأعماله النسكية التي منفعتها تعود فقط على الذي يقوم بها]**(٥).

**الخاتمة:**

من سلوك القديس أثناسيوس في هذه المواقف الثلاثة التي عرضناها نستطيع أن نتبيَّن صحة تقرير القديس غريغوريوس النزينزي بأنه: [**كان أثناسيوس الكبير في جميع**

---

(٣) القديس غريغوريوس النزينزي، عظة ٢١: ٣٥ في مدح أثناسيوس.

(٤) القديس أثناسيوس، الطوموس إلى الأنطاكيين: ٨.

(٥) القديس غريغوريوس النزينزي، عظة ٢١: ٣٦ في مدح أثناسيوس.

**الظروف هو الوسيط والمصالح بين المتخالفين، متشبِّهًا بذاك الذي «عمل الصلح بدمه» بين المتناقضات].**

كان هذا جانبًا أساسيًّا في شخصية القديس أثناسيوس لم يُعطِهِ الكُتَّاب المعاصرون الانتباه الكافي. وبذلك صار تصوُّرنا لشخصية أثناسيوس تصوُّرًا من جانب واحد غير متكامل. لكن القديس غريغوريوس النزينزي في مدحه لأثناسيوس يُشير إلى أنه جمع في شخصيته جانبَين قلَّما اجتمعا في شخص واحد:

**[لقد جمع في نفسه صفات حجرَين متميِّزَين: فقد كان كالأدمنت (الألماظ) إزاء الذين يوجِّهون له الضربات، وأما البعيدون عنه فكان لهم كحجر المغنطيس الذي يجتذب الفولاذ ويتآلف مع أقسى المعادن بقوة جذب طبيعية تفوق الإدراك][٦].**

نعم لقد كان القديس أثناسيوس كالأدمنت (الألماظ) إزاء الذين يقاومونه فلم يستطيعوا أن ينالوا من رسوخ إيمانه، لا بالتهديد ولا بالتشهير ولا بالنفي. ولكنه كان في نفس الوقت كالمغنطيس له جاذبية روحية سرية منبعها في الحقيقة هو محبته الشديدة للمسيح التي يحس بها الآخرون فينجذبون إليه ويتصادقون معه في المسيح الواحد، كما حدث مع المكلفين بمراقبته في نفيه الأول (مكسيميانوس أسقف تريف) وفي نفيه الثاني (يوليوس بابا روما)، عدا العلاقات الروحية الحميمة التي عقدها مع رهبان الغرب والتي بسببها كتب لهم بعد عودته إلى مصر سيرة القديس أنطونيوس.

إن المقولة التي تتبادر إلى ذهننا أول ما نسمع اسم أثناسيوس: "العالم كله ضدك، فأجاب وأنا ضد العالم" لم نجد لها أي أصل في الكتابات التاريخية الموثقة، لا في كتابات أثناسيوس التاريخية (تاريخ الأريوسيين وتاريخ المجامع) ولا في كتب التاريخ الكنسي لكل من سقراط وسوزومين وثيودوريت الذين أرَّخوا لهذه الفترة. ولكن على ضوء وصف القديس غريغوريوس له، وعلى ضوء مواقفه السلامية التي قدَّمناها نستطيع أن نتصوَّر ماذا كان يمكن أن يُجيب إذا ما قيل له: "العالم ضدك يا أثناسيوس"، كان سيُجيب: "نعم وهذا لا يخدش إيماني في شيء (فقد كان كالأدمنت الذي لا يخدشه أي معدن)، ولكني بنعمة المسيح سأجتذب العالم كله إلى الإيمان القويم!" فقد كان كالمغنطيس الذي يجتذب إليه الفولاذ وأقسى المعادن.

---

(٦) القديس غريغوريوس النزينزي، عظة ٢١: ٣١.